«القنبوس».. أقدم آلات اليمن الموسيقية تتحدى الواقع

«القنبوس» أو «الطربي» :

الأمناء/عبدالاله سُميح:

- آلة موسيقية وترية تجسدت في النقوش السبئية اليمنية في عصور ما قبل الميلاد

- تمثل جزءًا مهمًا من الهوية اليمنية، وعمرها أكثر من 3 آلاف عام

بين أزقّة مدينة شبام التاريخية، في قلب محافظة حضرمـــوت ، ينكـــبّ النجار أحمد عبد الله زبير، على نحت قطعةٍ خشـــبية من جذع شجرة «الطنب»، مستلهمًا العبق الأثري الزاخر الـــذي يحيط بـــه، ليحولها إلى إحدى أقدم الآلات الموسيقية الوترية، التي عرُفت في حضارة اليمن باسم «القنبوس» أو «الطربي»، وتجسدت في النقوش الســـبئية القديمة في عصور ما قبل الميلاد.

يمزج الخمسيني أحمد شغفه في النجارة بولعـــه في الموســـيقى، عن طريـــق حرفته المكتســـبة وراثيًا عن أجداده؛ مـــا يجعله مع حرفي آخـــر في صنعاء القديمـــة، يحتكران صَناعة الآلة الطربيـــة الأولى في اليمن خلال العقود الأخيرة، ويتفردان بأسرارها إلى ما قبل عامين.

يقول النجار أحمد، وهو ابن شقيق الفنان الحضرمـــي المعروف بدوي زبـــير إن صناعة «القنبوس» الواحدة تســـتغرق نحو شـــهر؛ بســـبب تكونها مـــن قطعة خشـــبية صمّاء واحدة، يتم تجويفها بعناية فائقة عبر النحت، قبل أن يُغطى بطن الآلة بجلد الماعز، ويضاف إليه الأوتار الأربعة المصنوعة قديمًا من أمعاء الماعـــز، وهو ما يميـــز هذه الآلة عـــن العود الشرقي.

خلال العقود الماضيـــة، كان النجار أحمد زبـــير، عضوًا في فرقة «الموســـيقى والفنون الشعبية في شـــبام» إلى جانب عضويته في الفرقـــة التابعة لمكتـــب وزارة الثقافة اليمنية في مديريات وادي وصحـــراء حضرموت؛ ما جعله يشـــير إلى أن «القنبـــوس» الذي بدأت صناعته التقليدية في شبام حضرموت خلال عام 1895، يعدّ مهـــدًا للعود العربي التقليدي الذي مرّ بعدة مراحل من التطور، حسب وجهة نظره.

ويصنِّـــع النجار الحرفي آلـــة «القنبوس» حســـب الطلبـــات التـــي تصله مـــن فنانين وموسيقيين يمنيين داخل البلاد وخارجها، إلى جانب الطلبات الأخـــرى الواردة من كويتيين، وإماراتيين، وسعوديين، ومصريين، وقطريين، والتي يقول إن بعضها «يطلب إضافة تعديلات على الأوتار وعددها، مع الحفاظ على الشكل التقليدي العام للآلة».

جزء من الهوية :

ويحتدم الجدل بـــين المؤرخين حول تاريخ ظهور «القنبوس»، الذي انتشر بشكل أكبر في صنعاء القديمة وحضرموت، حتى بداية أفول نجمه في أوائل القـــرن العشرين في صنعاء، إبان عهد الإمام يحيى حميد الدين.

ويـــرى مؤســـس ومدير «البيـــت اليمني للموســـيقى والفنون»، فـــؤاد الشرجبي، أن آلة «القنبوس» تمثل جـــزءًا مهمًا من الهوية اليمنية، إذ تحمل رمزيتها عدة سمات تاريخية وفنية وحضارية؛ «كون عمرها يصل إلى أكثر من 3 آلاف عام، ووجدت في نقوش دولة سبأ، وهي تعكس حضارة اليمن القديمة، إذ لا ترتقي الفنون إلا في وجود دولة متحضرة ومتقدمة سياسيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا، واجتماعيًا».

وقال إن هذه الآلة الوترية «صاحبت الغناء الراقـــي في تلك الحقبة مـــن التاريخ، وعبّرت عن أجمل ما يبدعه الإنســـان الخلّاق لترجمة مشاعره الإنســـانية الســـامية، خصوصًا أن القنبوس امتاز بطريقـــة صناعته كمنحوتة يســـتخدم فيها جلد الماعـــز المدبوغ بقليلٍ من مادة النحاس، لزيادة جودة الرنين، فضلًا عن استخدامه ريشة النسر في النقر على الأوتار، ما يمثل حالة إبداعية متكاملة فنيًا».

رحلة العودة :

وكان «البيت اليمني للموســـيقى والفنون» من الجهات الســـباقة إلى إحيـــاء «القنبوس»، بهدف حمايته من الإندثـــار ونقله إلى الأجيال القادمة، عـــبر مشروع «عودة إلى الســـطح» الذي دعمته اليونســـكو في عام 2022، لتدريب الحرفيين عـــلى صناعته، والموســـيقيين على إجادة العزف عليه.

ويؤكد فؤاد الشرجبي، أنه يمكن اســـتعادة دور آلـــة «القنبوس» أو «الطـــربي» من خلال إحياء صناعتها ودعمها فنيًا، وتدريب الشـــباب على العزف عليهـــا بالتكنيك الخاص بهذه الآلة الوترية النادرة، إلى جانب إدماجها ضمن الآلات الموسيقية للفرق الرسمية التابعة للدولة.

وأشار إلى أن جميع فعاليات «البيت اليمني للموسيقى والفنون»، باتت تشهد حضورًا قويًّا لـ«القنبوس»، حتى خلال المشاركات الخارجية، التـــي كان آخرها الفعاليـــة الفنية في المؤتمر الدولي الذي نظمتـــه الأمم المتحدة في الدوحة، العام الماضي.

وعلى الصعيـــد الدولي، عـــاد «القنبوس» للظهور مجددًا عـــام 2022، في القاهرة، خلال فعاليات «السيمفونيات التراثية»، التي يقودها الموسيقار اليمني الشـــاب، محمد القحوم، في جولة جابت مؤخرًا مصر، وفرنســـا، والكويت، عبر مقطوعات فنية تراثية.

وكان القحوم قد قال في حوار ســـابق مع «إرم نيوز»، إنه استطاع خلال مشروعه الفني، دمج كثير مـــن الآلات الشـــعبية المحلية، منها «القنبوس» الذي وصفه بالآلة القديمة المرتبطة بالأصالة اليمنية العميقة، بالموســـيقى العالمية الأوركســـترالية، على نحو يخلق مزيجًا يحافظ على هوية النغمة التراثية اليمنية.

تحدي الحاضر الموسيقي :

في المقابـــل، يعتقـــد رئيس اتحـــاد فناني حضرمـــوت، طـــارق باحشـــوان، أن عـــودة «القنبـــوس» كآلة أساســـية يمكـــن الاعتماد عليها في الأغاني، «هـــي عملية صعبة في ظل إمكانياتها ومساحتها الصوتية المحدودة، كآلة مكونـــة من 4 أوتار، ومع وجـــود العود الأكثر تطورًا ومساحة، وتكنولوجيا التوزيع الموسيقي التي باتت منتشرة».

وقال باحشـــوان، في حديث لـ«إرم نيوز»، إن إحياء هذه الآلـــة الوترية القديمـــة حاليًا، سيكون محدودًا ومستخدمًا في «الصوليهات»، مثل اســـتخدام آلة المزمار، وتبقى «القنبوس» محتفظة بوجودها كآلة لها صوت مميز.

وأضاف أن الـــتراث دائمًا يكون حيًّا، وإن لم يكن كذلك ويتفاعـــل مع المجتمع، «فإنه يصبح شيئا جامدا، وبالتالي يتحول إلى المتحف بهدف زيارته فقط».

وحول ارتباط «القنبوس» باللونين الغنائيين الصنعاني والحضرمي، يرى باحشـــوان أن ذلك يعود لكونهما لونـــين تاريخيين عكس الألوان الغنائية المحلية الأخـــرى؛ إذ ارتبط «القنبوس» باللون الحضرمي حتى نهاية القرن الثامن عشر، قبل أن يحل محله العود، «ولهذا جاء لون غنائي في تلك الفترة بحضرموت يدعـــى (العوادي)، نسبة إلى العود الجديد الذي بدأ يظهر».

- ارتبطت باللونين الغنائيين الصنعاني والحضرمي